الشفرة اللغوية و المنظومة البلاغية في شعر المقري التلمساني

من خلال كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)

أ. حبيبة مسعودي
Habiba.mess@gmail.com
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة جيجل

ملخص

من يعود إلى كتب التراث المغاربي يلحظ بأنه يعج بالدارسين الذين كانت لهم إسهامات واضحة في تأسيس وإرساء دعائم هذا التراث، وارتأينا أن يكون موضوع هذا المقال هو "المقري التلمساني"؛ إذ حاولنا أن نقف عند إسهاماته من خلال تناولنا لشفرته اللغوية ومنظومته البلاغية التي تجلت لنا في مؤلفه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، حيث شكل من خلاله منظومة منسجمة، شديدة التشابك و التشاكل ما أعاننا في الكشف عن كفاءات بلاغية تعبيرية بنائية.

Résumé

L'objectif de cette étude est vise à élucider certains aspects de la personnalité de El-Maquri Attilamssani, c'est pour cela nous pouvons dire que n'importe quel chercheur qui s'intéresse au patrimoine Magrébin, remarque que ce dernier attire plusieurs chercheurs, c'est grâce à eux que nous avons pu connaitre ce grand pionnier.

Alors que le résulta obtenu a travers cet article nous avons essayé de contribuer avec les chercheurs qui s'intéressé de découvrir El-Maquri Attilamssani, qui a pu former des nouveaux mécanismes dans ces étude linguistique et esthétiques, surtout le code linguistique et la tenue rhétorique qui nous avons démontré dans son ouvrage.

{{ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب}}

مقدمة:

إن المتصفح لأدبنا الجزائري القديم منه و الحديث يلحظ بأنه غني بالأعلام البارزين الذين كان لهم الفضل الكبير في وضع معالم هذا التراث و أسهموا بشكل ما في تأسيسه وا رساء دعائمه، ومن بين هؤلاء العلماء البارزين نذكر الشيخ "أحمد بن محمد المقري التلمساني" الذي فضلنا أن يكون محور هذه الدراسة - ولكن قبل أن نتطرق إلى إسهاماته من خلال شفرته اللغوية ومنظومته البلاغية-موضوع الدراسة - في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)- يجدر بنا أن نسلط الضوء على شخصيته ومؤلفاته، وعلى عملية صياغته لتصوراته ومفاهيمه، ومن ثم نتناول فكره بالدرس و التحليل، وانتهاجنا لهذا المسلك كان بغرض توضيح الصورة في ذهن المتلقي حول فكرة وبلاغة هذا العلم الجزائري.

مشكلة الدراسة:

تتمحور مشكلة الدراسة حول قطبين أساسيين:

- الأول يتمثل في: حقيقة التشكيل النصي اللغوي عند "المقري التلمساني" من خلال كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب).
- و الثاني يظهر لنا في: تبيان الصبغة البلاغية عنده ومدى انعكاساتها على تلك البنية المجسدة لذلك الكتاب.

ومن هنا تكون الإشارة واجبة إلى بعض الحقائق المعرفية التي هي ضرورية في أثناء فتق تلك البنية وفق دراسة شفرتها اللغوية ومنظومتها البلاغية، وهذا الأمر يتطلب من المتعامل مع تلك البنية أن يكون ماهرا في استيعاب حقيقة التلاعب اللغوي؛ لأن المبدع يستند في استعراض أفكاره على العملية التوزيعية لها وهذا بغية إظهار جوهر الدلالة التي يرغبها بوصفه مبدعا، كونه-المبدع- كثيرا ما نجده يلجأ إلى المزاوجة في إنتاجه بين التلميح والتصريح، ومن هنا نشير إلى أنه يستلزم على المتفاعل مع النصوص أن يزيد في التدقيق بفهم المعاني و الرموز الموظفة في تلك النصوص، انطلاقا من جو هر الأنظمة الفكرية والفلسفية واللغوية و الأدبية ؛حيث يمكن للمتمعن

فيها أن يفهمها وتتضح أهدافها ومبادئها، دون أن يغفل الإطلاع على شفراتها اللغوية ومنظوماتها البلاغية، وهذا ما رغبنا فيه من خلال تعاملنا مع "المقري التلمساني" ومصنفه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) لتنتهي دراستنا إلى جملة من الأسئلة نذكر منها: إلى أي مدى يمكن تناول حقيقة الرمز اللغوي في الحقل البلاغي؟ وما هي أهميته في التشكيل النصي؟ أهي فن الصناعة الجمالية؟ أم أنه مجرد رمز يؤدي وظيفة دلالية بلاغية فحسب؟ ثم ما مدى فعاليته في بناء الشفرة اللغوية و المنظومةالبلاغية؟ وا إلى أي مدى يسهم هذا الرمز في تشكيل العنصر البلاغي في الإبداعات؟ وأين "المقري التلمساني" من خارطة الحقل الإبداعي بدءا بشفرته اللغوية وصولا إلى منظومته البلاغية؟

أهداف الدراسة:

- الكشف عن مدى غنى الجزائر بالعلماء و المفكرين الذين آثروا التراث العالمي بالمؤلفات و المصنفات التي لحد الساعة أغلبها يظل مجرد مخطوطات تنتظر الالتفاتة لاستنطاق ما تتضمنه من كنوز معرفية.
- محاولة التعرف على نموذج من الإبداع الجزائري سواء أتعلق الأمر بالفعل أو بالعقل ويتجلى هذا بالخصوص في شخص"المقري التلمساني"، حيث وجدناه يملك خيالا ثقافيا يحتضن كلا من عمليتيالتحليل و التركيب اللتين ظهرتا في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)
- تاول المنظومة اللغوية كمنظومة و الشفرة البلاغية كبلاغة قصد تبيين الأسس الموضوعية التي انطلق منها "المقري التلمساني" في إبداعه.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسةفي إثبات حقيقة الشفرة اللغوية و المنظومة البلاغية عند "المقري التلمساني"، وتناول التوجه الفكري عنده في مجال الإبداع، كما تعمل على النظر في البناء النصي الخطابي لهذا المفكر، وذلك من خلال إيجاد آليات الإقناع وترتيبها وصياغتها لغويا، حيث كان الوقوف فيها على المعابر الثلاثة (التركيب،

التداول، الدلالة)، وهذا من خلال ما سقناه من نصوص مسجلة في مدونته موضوع الدراسة.

منهجية الدراسة:

لما كان المنهج في معناه العام هو الوسيلة أو الطريقة التي توصلنا إلى هدف محدد، وفي معناه الخاص مسلك الباحث في تحصيل المعرفة، ولما كان نجاح العمل الإبداعي أو القرائي مقترن بالمنهجية المتبعة في الدراسة فإنه لزم علينا أن نحدد نوع المنهج الذي تم تطبيقه في تناولنا للشفرة اللغوية و المنظومة البلاغية عند "المقري التلمساني" من خلال كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، ألا وهو المنهج الوصفي التحليلي، وبرز ذلك في أثناء الحديث عن العنوان الذي انتقاه "المقري" لمصنفه، ثم الحديث عن أنواع البلاغة عنده من (بلاغة تاريخية، بلاغة معيارية، بلاغة وصفية، بلاغة تأويلية). ولكي نحقق الغاية من الدراسة تم الاعتماد على جملة من المصادر و المراجع، أما المصادر فتمثلت في كتاب "المقري التلمساني"[1] (نفح

---

[1]- لقد أشار المؤرخون إلى أن أصول"شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقري التلمساني إلى قبيلة (قريش)، وقد رأى النور سنة 986 هـ-1578 بتلمسان؛ حيث نشأ وترعرع بها متتلمذا على يد مجموعة من الشيوخ أمثال عمه الشيخ (سعيد المقري)، وفي حدود الرابعة والعشرين من عمره انتقل إلى فاس ومنها إلى مراكش التي وضع فيها مؤلفه (روضة الآس) الذي شرع في تأليفه بعد عودته من فاس ومنها إلى تلمسان ليقدمه إلى (السلطان المنصور) إلا أن هذا الأخير قد توفي سنة (1013)، ومن ثم قرر أن يرتحل نهائيا عن مسقط رأسه، تلمسان، إلى فاس ومكث بها حوالي خمسة عشر سنة إلى أن توفي(المنصور الذهبي) وظهر صراع أبنائه على الحكم، وقيل بأنه اتهم "بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها" ولذلك غادر فاس متجها نحو (تطوان) (1027) ثم إلى تونس وسوسة وا لى الإسكندرية ومنها القاهرة فالحجاز بحرا، ومنها إلى مكة المكر مة فأدى العمرة ثم مناسك الحج، وزار مكةخمس مرات و المدينة سبع مرات، وكان في كل مكان يحل

الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، أما المراجع فنذكر منها: المقري أغرب سفير الأندلس صفحات مشرقة) لـ" حسين مؤنس"، (البلاغة والأسلوبية نحو منهج سيميائي لتحليل النص) لـ"هنريش بليث" ترجمة "محمد العمري، (النظرية التأويلية عند ريكور) لـ "حسن بن حسن"، وغير هذه المراجع كثير والتي قد أسهمت في إثراء البحث.

قراءة في العنوان(نفح الطب في غصن الأندلس الرطيب):

يعد الكتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) من أهم الكتب التي تتضمن مواضيع هامة حول الذات العربية، وما لها من دور في إرساء دعائم الثقافة العربية المغاربية، فضلا عن تلك المواضيع الدالة على أخبار تلك الذات -(العربية)- ومعرفتها ببعض ما يتعلق بالأندلس من أخبار ورحلات مثل موقعها الجغرافي وأهم

به يلقي الدروس ويملي الحديث النبوي الشريف، وقام بزيارة بيت المقدس ودمشق ليعود في نهاية المطاف إلى مصر وأقام بها مدة طويلة. ومهما يكن من أمر (المقري) التلمساني وانتمائه المعرفي فإنه يظل – في اعتقادنا – من بين المدافعين عن العرب وعن ثقافتهم وحضارتهم مكر سا جهده وحياته لخدمة الاثنين، وظل (المقري) "أغرب سفير"، ينظر: حسين مؤنس، المقري أغرب سفير الأندلس صفحات مشرقة، (الكويت وزارة الإعلام، بر ج الإنماء، 15 أكتوبر 2004م)، ص.36؛ وقد وافته المنية سنة 1632م بمصر مخلفا وراءه آثارا كثيرة في التصوف والأخبار والفقه و التاريخ....الخ، ونحن لا نسرد كل هذه المؤلفات كوننا لا نقوم بعمل إحصائي ببليوغرافي لها إنما نكتفي بالإشارة إلى أبرز ما اتفق عليه الدارسون بوصفها أهم ما تركه لنا (المقري) من مؤلفات مثل: روضة الأس العاطرة النفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش و فاس أشار "إحسان عباس" إلى أنه ألفه حوالي "1011 – 1012 ليقدمه إلى المنصور أحمد الذهبي"، ينظر: المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج1، ص.11، وكذلك كتاب (أزهار الرياض في أخبار عياض)؛ حيث ذكر "إحسان عباس"إلى أنه "ألفه حينما كان بفاس 1013 – 1027، وطبعت منه ثلاثة أجزاء بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا، وا إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي" ينظر:المقري، المرجع نفسه، ص.11، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب الذي آثرنا أن يكون موضوع دراستنا.

مزاياها، ومناخها، وخيراتها، مع ذكر بعض الأمم التي استوطنتها... وما إلى ذلك من القضايا المتباينة، والتي سننتقي منها بعض ما يتعلق بالتشفير اللغوي والمنظومة البلاغية. وقد يكون أول ما يثير حفيظة المتلقي وهو يتعامل مع مؤلف (المقري) ذالك العنوان الذي اختاره لمصنفه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)؛ كون العنوان يعد بمثابة المفتاح الذي تفتح به مغالق النصوص بوصفه علامة نصية تكشف عن خصوصية أي نص، وتعبر عن المقصدية الدلالية التي يحملها هذا النص أو ذاك، ولاسيما عند تلقي النص عبر السياقات النصية المتباينة فيما بينها.

فعلى الرغم من هذا التباين النصي إلا أن هناك تعالقات تسهم في تشكيل بنية أي نص واعتمادا على الوحدات اللغوية الواردة فيه و التي من خلالها يتمكن المتلقي من اكتشاف العلاقة بين العنوان والعمل الأدبي، ومما لا جدال فيه أن (المقري) قد اهتم بانتقاء عنوان كتابه مدركا بأن للعنوان وظيفة يؤديها في البناء النصي؛ بحيث يتم في ضوئه استقطاب القارئ إلى ما يسعى الكاتب إلى تحقيقه، ومن ثم يسهل عليه (المتلقي) التعامل مع النص؛ لأن العمل الأدبي في كثير من الأحيان تتضح معالمه من العنوان الذي يختار له، وهذا ما قام به (المقري) في معظم كتبه وبخاصة كتابه الموسوم (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب).

وفي ظل هذا التصور وضع (المقري) عنوان كتابه متفطنا لما للعنوان من أهمية تتمثل في كونه تمثل شفرة من الشفرات التي بفضلها يتشكل أي نص، فعنوان مصنفه هذا أقل ما يقال عنه أنه يعد الإشارة للرسالة (العمل الأدبي) التي يرسلها المرسل (المبدع=المقري) إلى المرسل إليه (القارئ/المتلقي)، ففي ثنايا البحث السيميائي الذي يجعل من علم اللغة نظاما إشاريا يعبر عن الأفكار، نجد أنفسنا أمام مجموعة من الدوال:(النفح)، (الطيب)، (البعضية–من-)، (الغصن)، (الرطيب)، وهي التي تشكل:العمل الأدبي "النفح" إظهار دلالته، و المرسل إليه المتلقي. ونرجح بأن المسلك الذي سلكه (المقري) في وضع عنوان مؤلفه بهذه الصورة اعتمد فيه على رؤية إسلامية، كما كان متأثرا بالفكر الأندلسي، حيث أشار من خلاله إلى أن جمال الأندلس

لا يمكن أن يلخص في جملة واحدة؛ كون طبيعتها خلابة تستهوي كل من يزورها. ولهذا السبب انتقى لفظة (الأندلس) واضعا إياها مفتاحا لمدونه، مبينا بذلك العلاقة القائمة بين (نفح والطيب)، و(غصن والأندلس والرطيب)، مشكلا منظومة منسجمة شديدة التشابك و التشاكل وسنحاول في ضوئها الكشف عن مواقع أساسية مبينة لكفاءات بلاغية تعبيرية بنائية، والترسيمية توضح ذلك:

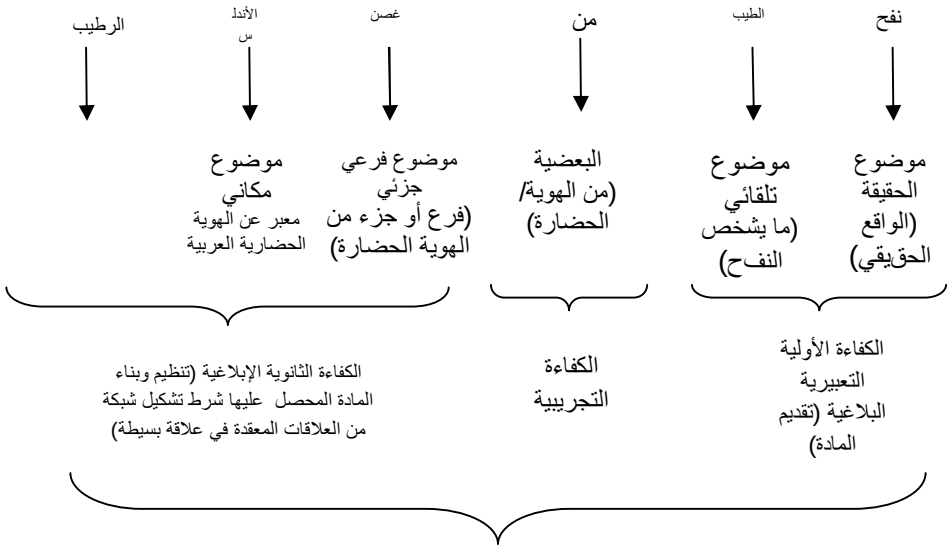

جمالية الحضارة العربية الإسلامية

مما لا ريب فيه أن هذه الترسيمية تبين لنا مدى تفطن (المقري) كغيره من كتاب العرب القدامى- كالجاحظ وابن قتيبة مثلا– لأهمية العنوان بالنسبة للعمل الأدبي ولذلك حاول انتقاء الدوال التي آثار أن تكون عنوانا لمؤلفه محاولا إنتاج الدلالة في صورة بلاغية فنية متصلة بالأثر النصي المتناول؛ أي الوضعيات المتباينة المحيطة بهذا النص ولاسيما الوضعية الاجتماعية وموقعه بالنسبة إلى مجموع معايير الإقناع، والسلوك المعتمد في عصره، والاختيار الذي يتبناه من بين الوسائل التي تستوجبها الظروف

بالنظر إلى المتلقين الذين وجه إليهم النص وكأننا (بالمقري) يحاول بناء النص الخطابي من خلال إيجاد آليات الإقناع وترتيبها وصياغتها صياغة لغوية جميلة ثم ترتيبها وا لقائها على المتلقي بطريقة تعبيرية معينة، مركزا بذلك كله على ثلاثة دعائم: التركيب و التداول والدلالة، واضعا في حسبانه ما للمرجع والواقع من دور في تلك الدعائم الثلاثة المشكلة لنسق بلاغي معين.

ومن خلال هذه الدعائم وكذا العنوان الذي وضعه (المقري) لكتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) يمكننا استخراج ما هو متعارف عليه بالبلاغة المعيارية و البلاغية الوصفية والبلاغية التاريخية والبلاغية التأويلية.

وفي اعتقادنا أن عنوان كتاب (المقري) يعد أنموذجا للإنتاج النصي الذي يقوم على بناء وظائفي نصي يحقق مقاما معرفيا إخباريا خطابيا يدمجه في أنموذج نصي وظيفي يقتضي من صاحبه فصاحة عفوية وفصاحة لغوية.

حوارية العنوان مع النص المقري:

إذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الحو ارية أو الجدلية القائمة بين العنوان – الذي انتقاه (المقري) لمصنفه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)– وبعض النصوص المنتخبة نلحظ بأن النص (المقري)– إن صح التعبير– مثلث يقوم على معطيات ثلاثة:[1]

أ- التركيب (نموذج نحوي – الصور السيميو – تركيبية).

---

[1]- عبد المجيد زراقط،" البلاغة العربية في أسس نشأتها، نظرية في الكشف والإيصال"، **مجلة الفكر العربي**،ع46 (بيروت: الصادرة عن معهد الإنماء العربي للعلوم العربية، السنة 8، يونيو 1987)، ص. 222.

ب - التداول (نموذج تداولي– الصور التداولية).

ج- الدلالة (نموذج للواقع– الصور السيميو– دلالته).

و المتمحور حول الدوال ومدلولاتها التي تجعل من اللفظ الدال الحقيقي ومن المتولد منه المدلول الحقيقي (موضع الحقيقة)، وقد يكون الدال حقيقيا منذ نشأته، علما بأن الدوال الدالة دلالة حقيقية تمثلها تلك التي تنتقل من دلالة إلى دلالة أخرى مجازا فتتشبث بالدلالة المستحدثة وقد تهجر الدلالة الأصلية، مشكلة بذلك توليفة دلالية دالة على القصد، ومقدمة على شكل صورة فنية بلاغية، ولاسيما أن "البلاغة تعني بأساليب أداء المعنى المحدد مسبقا لإجادة صياغته وفق قواعد وأصول محددة".[1]

ولا نجافي الحقيقة إذا ما قلنا بأن المعنى الذهني يأخذ موضع النص المتكون من علامات لغوية، ومنظومة بلاغية تؤلفان بنيته البلاغية والدلالية وتدعوان إلى إخراجه من بوتقته البلاغية المعيارية المشكلة لمجموعة لغوية بهيئة متميزة مرورا بالبلاغة التاريخية والوصفية ككل لتصل به إلى بلاغة تأويلية تسعى إلى اكتشاف مستويات الدلالة وتفتحها والمبينة لعلائقه الداخلية.

وفي ظل هذا التصور يمكن القول بأن (المقري) يستعرض في بعض نصوصه ما يتعلق بوضعيته الاجتماعية وكل ما يحيط به من سلوك معتمد في عصره ، ولكي يكون كل منا مؤسسا يجدر بنا أن نورد بعض النصوص من مدونته (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) التي تقف فيها على المعابر الثلاثة (التركيب، التداول،

---

[1] - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج 1، ص، 74.

الدلالة)، وما يتولد منها من بلاغة تاريخية وبلاغة معيارية وبلاغة وصفية وبلاغة تأويلية:

1 -البلاغة التاريخية:

يقول المقري: " تركت رسم عزي في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم ورضت النفس بالتجريد زهدا وقلت لها عن العلياء صومي مخافة أن أرى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم".[1] وقوله:
" وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ولكن أرى تحصيلها بالدنية وا ِن طاوعتني رقة الحال مرة أبت فعلها أخلاق نفس أبيه".[2]

إن المدقق في هذين النصين يبدو له بأن لغة (المقري) ذات رؤية إسلامية،وتتسم دواله بالرقة والسهولة والابتعاد عن كل ما هو حوشي، حيث جاءت دواله سهلة ذات دلالة واضحة لا تحيل القارئ إلى المعاجم اللغوية – إلا في القليل النادر– كالدوال التالية:(رضت، النفس، الزهد، الصوم، الطاعة، الأخلاق، النفس الأدبية...)، علاوة على أنها دوال مرتبطة ارتباطا وثيقا بمدلولاتها التي يمكن أن تستوحي منها دلالات محددة لها مفهومها البنائي، ووقعها الصوتي الموسيقي، وقيمتها

[1] - المقري، المرجع السابق، ص. 74.

[2] - المرجع نفسه، مج 2، ص. 348.

الجلية، فهي على الرغم من تبيانها وضوحا وإبهاما إلا أن المتلقي يكون بمقدوره تكوين صورة ذهنية معينة تتماشى مع مستواه اللغوي والفكري.

وصحيح أن المتأمل في هذه الوحدات اللغوية التي تضمنتها تلك الأبيات الشعرية يجدها لا تخرج عن الإطار اللغوي المعروف، والمتواضع عليه من قبل الدارسين إلا أن (المقري) استطاع أن يوظفها توظيفا جديدا يتلاءم ومقتضيات العصر، فهو في أبياته الثلاثة الأولى يعالج وضعية اجتماعية تقاسي منها ذاته إنها وضعية الغربة والاغتراب الخفي و الظاهر، الفرداني والجماعي، أما في البيتين المواليين نجده يتغنى بقيمة أخلاقية اجتماعية تمثلت في زهده.

وإذا دققنا النظر أكثر في هذه الأبيات نلحظ بأن الكلام كله يتكئ على ضمير المتكلم (أنا)وهو يضفي عليها دلالات وإيحاءات متحولة تجعل الشفرة اللغوية والمنظومة البلاغية المقرية محمولة على دلالات عديدة تقصر المسافة بين التكلم (المقري) وتجربة الغربة (المكانية/ الذاتية) التي تعد جزءا من ذاكرة (المقري)، هذه الذاكرة التي كانت بدورها جزءا من التجربة الإبداعية, التي حاول من خلالها أن يوجد بين اللغة والتجربة، ويعمل على تحويل اللغة المألوفة العادية إلى ظاهرة جمالية بلاغية تاريخية يضمنها خلاصة تجاربه التي تقوم على الامتزاج بين العالم الخارجي (الواقع) والعالم الداخلي (الذات)، معتمدا في ذلك كله على وسيلة هامة وهي اللغة التي تعد في اعتقادنا الرابط المباشر بين (المقري) المبدع/المرسل، والقارئ/المرسل إليه؛ إذ بفضلهما يتم تكوين نتاج دلالي فعلي مرتكز على هذه الآلية الإبداعية المشكلة للعناصر الفنية التي تكون بنية النصودمج الدلالة في الشفرات اللغوية، وإخراجها في صورة منظومة تركيبية بلاغية قائمة على تاريخية النص المعالج للغة في شتى السياقات والمواقف

الواقعية أي تداولها في أثناء الممارسة العملية للغة المتعلقة بالمقاصد التي تحققها الظواهر اللغوية في العملية التواصلية، وعلاقة ذلك بالتفاعل معها- مستخدمها– وفي ثنايا هذا الفهم لا يفوتنا أن ننبه إلى أن (المقري) وضع نسيجا بلاغيا ضمته دلالة معينة فكانت مزيته تنبع من قدرة الكلام على إنتاج حالة من التبصر غير المألوف، وتحمل في طواياها كثافة رمزية تجعل من المعنى مرادفا للإيحاء به، فتفتحه على التوالد المستمر في فضاء الاحتمالات شأنه في ذلك شأن عنوان الكتاب، ولعل هذا ما يعكسه لنا فعل (الرؤية)الوارد في الأبيات الثلاثة الأولى و البيتين الآخرين – المشار إليهما، حيث نلاحظ في ضوء هذا التوالد بأن الوضع الرؤيوي (الحالة) ينهض داخل إطار مكاني معين، فقد يكون بالعين المجرد– (البيت 3 المجموعة1)- كما يمكن أن يكون بالبصيرة والاعتقاد (البيت 2 المجموعة 2) فالأول يتم بوسيلة ملموسة و الثاني بآلية محسوسة، من هنا يمكننا القول بأن الحالة الرؤيوية التي أشار إليها (المقري) قد تتحقق في اليقظة أوفي الحلم أو في مزيج منهما، كذلك فإن حاسة البصر تخضع في العملية الرؤيوية لهيمنة البصيرة، والبصيرة – كما هو معلوم– تعد عين داخلية – يستوي لديها الحلم واليقظة، الغياب والحضور– تمكن المبدع من وضع صورة لواقعه الخارجي تحت لوائها، ويتراءى لنا أنه لولا هذا الإمكان لما كان بمقدور (المقري) المبدع أن ينتقل في تصويره من العالم الذاتي إلى العالم الخارجي، وربما هذا ما نلمسه إذا ما أردنا أن نوازن بين عنوان مصنف (المقري)، (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، وبين هذه الأبيات التي استعرضناها، بحيث حاول المؤلف أن يعقد بين الدوال والمدلولات علاقة وثيقة تستقي أهميتها وقيمتها الفنية البلاغية من النظام الجمالي الذي يقوم على الدعائم الثلاثة –المذكورة آنفا– التركيب، التداول، الدلالة والتي تنجم منها البلاغة المعيارية (التي حاولنا التركيز عليها في تناولنا لعنوان المؤلف)،

والبلاغة الوصفية و البلاغية التأويلية والبلاغية التاريخية، هذه الأخيرة التي نحاول تفصيل القول فيها من خلال أبيات(المقري) التي انتقيناها من مصنفه.

2-البلاغة الوصفية: نلمس هذا النوع من البلاغة في قول (المقري):

" من فضل النرجس وهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا وقام في خدمه النرجس".[1]

والمتأمل في هذه الأبيات يتضح له بأنها تحوي مجموعة من الآثار النصية التي تشكل خصوصيات بنائية لهذه البنية النصية المتحققة بفضل سمتي الموقعية والسياقية اللتين تقومان بوظائف سياقية وطاقة تعبيرية، فهي على الرغم من بساطتها وسلالتها إلا أنها تتسم بالصدق مع الذات المبدعة التي أرادت أن تعبر عن مكوناتها تعبيرا دقيقا يتم تشكيله من خلال النسق اللغوي الدال، فنص (المقري) – المشار إليه – يتوزع إلى عناصر تنتظم في بنية موحدة تتجسد وحدتها هذه عن طريق العلائق السياقية المقدمة للنظام الكلي الملاحظ في العلاقات الوثيقة بين البنى الصوتية والتركيبية والإيقاعية، وكذا في الطابق الماثل بين الأساليب البلاغية، ومن ثم يكون بوسعنا تحديد البنية النصية المقرية، كونها تمثل اجتماع عدد من الضوابط اللغوية و النظم البلاغية التي تمكننا من حقيق ضرب من التماثل بين العناصر الداخلية لهذه البنية، ومن ضمن هذا البناء الكلي لهذه العناصر التي يتركب منها السياق النصي وبالتالي يتولد منه النظام الاحتمالات(الانزياحات)، وهذا ما تبدي لنا من خلال هذه البيات التي بين أيدينا، إذ حاول في اعتقادنا – المقري– أن ينتقيها بذكاء واضعا في حسبانه العلاقة العضوية

[1] - المرجع نفسه، مج 2، ص. 342 .

التي تربط بين مجموع تلك العناصر الحاملة لصورة بلاغية معينة تضفي على النص دلالة فنية جمالية.

ومما يتراءى لنا أن (المقري) في هذه البيات يجعل كل من (النرجس والورد) محورا ثابتا تحوم حوله عناصر محددة تكون النظام الكلي للنص (المقري) مثل (حدث المفاضلة، والرضا، والرئاسة، والخدمة...)،وإذا كان الورد هو الممسك بزمام الأمور والمصدر للأحكام وهو بمثابة الآمر الناهي للنرجس فإن الورد لا محالة سيحظى بمكانة السلطان(الرئيس) ويبقى النرجس هو العبد الخادم (المرؤوس)، وهذا حال الفرد العربي في تصور (المقري) إذا غفل عن حضارته وانحاز نحو حضارة غيره فإنه حتما سيعاني مما يعاني منه (النرجس) الذي على الرغم من مكانته وسط نظائره من الورود إلا أنه خضع لسلطة (الورود)، وكأننا (بالمقري) يضع نصب عينيه تنبيه الذات العربية الإسلامية إلى ضرورة التشبث بالحضارة العربية، وما تنطوي عليه من ثقافة أصلية.

وحسبنا أن نشير إلى أن (المقري) ذلك (النرجس) كجزء من الكل (الورد) وهذا العمل في رأينا كان بغرض التنبيه إلى دور كل من الذات الفردية والذات الجمعية في بناء صرح الحضارة، وكأننا به يرفض تعالي الأنا الفردية عن الأنا الجمعية؛ كونهما يمثلان وجهين لعملة واحدة.

3- البلاغة التأويلية:

من المفيد لنا قبل الحديث عن هذا النوع من البلاغة وما مدى تجلياته في المنتجات الذهنية المقرية أن نتناول بالدراسة مصطلح التأويل ؛كونه يمثل العمود الفقري في هذا النوع البلاغي،فبفضله تتم العملية التأويلية لهذا النص أو لذلك عن طريق الوقوف عند الدوال والمدلولات– التي تحتضنها النصوص المتباينة– لما تحمله

من تكثيف دلالي بشكل ما في إعادة صياغة المفردات والتر اكيب المشكلة لتلك النصوص والتعليق عليها.

ومن خلال هذا المنظور يتبين لنا بأن التأويل ما هو إلا " تحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل وا ٍعادة صياغة المفردات والتركيب ومن خلال التعليق على النص(...) إنه توضيح مرامي العمل الفني ككل ومقاصده باستخدام وسيلة اللغة ".[1]

هذا النص يوضح بشكل جلي بأن المنتج الذهني–النص– له بنيتين: بنية سطحية تحمل دلالة أولية، وبنية عميقة تخفي وراءها تكاثفا دلاليا لا ينكشف إلا عن طريق الغوص في أغوار أنسجته المتقاطعة وما تحتويه من مستويات تركيبية، دلالية، صوتية، معجمية؛ كون هذا النص يخضع "لإمكانات الاستعادة التأويلية المستمرة".[2]

ولا نغالي إذا ما قلنا كما قال غيرنا بأن:" النص رحم تنمو فيه المعاني وتتناسل المؤثرات، والمتقبل يولد بحسب طاقته القرائية ضلالا من المعنى الممكن أو يضع اليد على معان ممجوجة مكررة،ويستجيب إن صدا أو قبولا لما يبسطه النص من أسئلة يعود بعضها إلى بنية القول وهيئته".[3]

---

[1] - ميجان الويلي، سعد البازغي، **دليل الناقد الأدبي**، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 1992)، ص. 45.

[2] - حسن بن حسن، **النظرية التأويلية عند ريكور**، (مراكش المغرب: دار تينمل للطباعة و النشر، 1992)، ص.44.

[3] - شكري مبخوت، **جمالية الألفة النص متقبلة في التراث النقدي**، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب و الفنون، بيت تونس، 1993)، ص.13.

من الواضح أن المنتجات الذهنية تحوي دوالا عديدة،و القارئ المبدع يسعى إلى اقتفاء آثار المدلولات الكامنة وراء تلك الدوال، ويحاول إزالة اللبس الذي يكتنف الدلالة التي تحجبها العلامة اللغوية، فالمبدع وهو يبدع إنتاجه – وعلى الرغم من أنه يأمل من وراء إنتاجه ذاك أن يحقق الانسجام بين أجزاء نصه واقترانها- يغرس فيه عناصر لغوية ويترك فيه فجوات وبياضات وعناصر إبهام تجري مجرى إثارة الحس الجمالي والبلاغي والذوقي لدى القارئ نحوه – نحو النص– الذي هو " نظام مخصوص يسمو على بقية الأنظمة العلامية، إذ تتكون مادته من حركة العلامة اللسانية وتتجلى في فضاء ذلك النص الدال سلسلة من الدلائل تتجمع في أفاق مركب مقطع التوترات ومجمع الكثافات التي يتخير القارئ منها منهاجية تفجيرية".[1]

ومما يبدو لنا أن البنية النصية تظل دلالاتها في حالة كمون إلى أن يتدخل المؤول/القارئ الذي يتراءى بأنه الوحيد القادر على إيضاح العوالم الخاصة بكل مبدع؛ لأن المبدعين مختلفون في الرؤى والتصورات – كاختلاف المؤولين – واختلافهم هذا ينعكس فيما يبدعون من إبداعات، فيسلط هذا المؤول أو ذاك الضوء عليها ويحاول إزالة الضبابية التي تعترض العمل فيسعى – المؤول- إلى توليد الصور الانزياحية انطلاقا من استيعابه للصور البلاغية التي تتضمنها التراكيب المشكلة للنص، ولكي يتضح ما سبق ذكره علينا أن نستعرض نموذجا على ذلك ويتمثل في قول (المقري

[1] - عاشور المنصف، "مشروع تنظيري في وصف الدال بين القراءة والكتابة إجراء شكل الشكل" **مجلة فصول** في عددها الخاص بقضايا الأسلوبية، مج5، ع 1، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1984)، ص. 96.

التلمساني) في وصف أرض (البطالة) ولاسيما أرض(القرط والكتان) بوصفهما أحسن موضع في ظواهر الفرجة بالقاهرة.

" سقى الله أرضا كلما زرت روضها كساهـا وخلاها بزينته القرط

تحلت عروسا والمياه عقودهـا وفي كل قطر من جوانبها قرط".[1]

وقوله أيضا في أثناء حديثه عن نور الكتان على جانبي الخليج:

"أنظر إلى النهر والكتان يرمقـه ومن جانبيه بأجفان لها حدق

رأته سيفا عليه للصبا شطب فقابلته بأحداق بها أرق

وأصبحت في يد الرواح تنسجها حتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم فزرها ووجه الأرض مصطبح أو عند صفرته إن كنت تغتبق".[2]

إن الناظر في هذه الأبيات يتجلى له بأن (المقري) كان معجبا بكل من (القرط والكتان)،وا ذا ما حاولنا فهم هذه الأبيات كبنية نصية مؤولة فإننا نلحظ بأنها – في اعتقادنا– تمثل نظاما لوحدات لغوية تتفاعل كل واحدة مع الأخرى، لتجسد الصورة الذهنية التي ير غب (المقري) في توصيلها إلى متلقيه، ومضفيا في ذلك كله صفات إنسانية على صور الطبيعة، ويتبدى لنا ذلك من خلال إشارته إلى أن الأرض بفضل روضها تعد عروسا وعقدها من المياه سقى الله الأرض، تحلت عروسا، المياه عقودها، وكذلك تنبيه إلى الأرض ووجهها إما المصطبح أو المصر ف فقم فزرها ووجه الأرض مصطبح،أو عند صفرته...

---

[1] - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج 2، ص.146.

[2] - المرجع نفسه، مج 2، ص. 347.

ومما لا ريب فيه أن (المقري التلمساني) حاول أن يخلق انسجاما بين عناصر الطبيعة ومن ثم يعالجها في علاقة ذات معنى أي ذات دلالة قد تكون متصلة برغبات الفرد وطموحاته، وكأننا بالطبيعة ذات وظائف تسهم في تكوين الصورة الذهنية المقرية بوصفها مكونة من أجزاء مرتبطة بالفرد الفعال الذي يسعى إلى دمج مختلف العناصر ليكسبها دلالة دلالية دالة ودلالة بلاغية تحقق الجمال الفني وبخاصة في الدلالة المولدة من الدلالة الأولى. والمتمعن أكثر في هذه البيات يجد بأن (المقري) قد استخدم بعض الدوال و المدلولات المعبرة على الأمان الذي يشعر به المتلقي إزاء تعامله مع البنية النصية المقرية مثل: قم فزرها، يرمقه، أجفان، حدق، النسج، الروض، العروس، قطر، الزينة، كساها وحلاها...

وربما يدفعنا هذا الزمان إلى أن نتخيل واقعا سيكولوجيا خارجيا بذاته يحفز على البناء اللغوي والبلاغي في النص، وما ورد في هذه الأبيات من دوال ومدلولات عبرت عن الاطمئنان النفسي إزاء الطبيعة عموما وا زاء الموضعين (القرط،الكتان) على وجه الخصوص، ما هو إلا نتاج حالة سيكولوجية وجدانية استعادها (المقري) من مخزونه الثقافي المتصل بجمال الأندلس التي كان يحن إليها، ومحاولته لإسقاطها على هذين الموضعين بالقاهرة، وبالتالي كان التفاعل الوجداني السيكولوجي مع (القرط والكتان) الذي أخرجه – (المقري)– على هيئة شفرة لغوية متضمنة لمنظومة بلاغية تأويلية تعتبر"النصوص كظواهر من ظواهر التلقي الهرمينوتيكي".[1]

---

[1] - هنريش بليث، **البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص**، تر. محمد العمري، (المغرب: إفريقيا الشرق 1999)، ص. 28.

وفي ظل هذا المنحى يبقى الربط المنطقي الذي اعتمده (المقري)– في هذه الأبيات – رمزيا يسلم من خلاله بحقه في الوجود في هذا المنظر الطبيعي لنشر الإحساس بالعلاقة الأزلية بين الإنسان والطبيعة، شأنها شأن العلاقة بين (المقري) وبلاد الأندلس، والفرد العربي وحضارته العربية الإسلامية، وما للعامل البشري من دور في النهوض أو الإسقاط بهذه الحضارة.

خاتمة:

صفوة القول أن الجزائر تملك حواضر علمية وثقافية جمة، أسهمت إسهاما فعالا في تفتيق العقل البشري، وتوسيع الساحة الفكرية بفضل تزويدها بإبداعات متباينة أنتجها بعض الباحثين الجزائريين في مختلف الحقول المعرفية، ويعد المقري التلمساني واحدا منهم، وقد حاولنا - في هذه الدراسة- قدر الإمكان أن نقتطف من كتابه المتميز بعض الأبيات الشعرية لنبين ما له من تمايز في التشفير اللغوي والمنظومة البلاغية التي يزخر بها مؤلفه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)، فوصلنا إلى النتائج التالية:

- ✓ إن محاولة البحث والتنقيب عن أعلام الفكر في الجزائر على امتداد حقبها التاريخية يجلي الضبابية والعتمة عن كل ما أبدعه أولئك الأعلام من المؤلفات، والتي لا زال أغلبها مجرد مخطوط ينتظر من ينفض الغبار عنه، مستنطقا إياه.
- ✓ الاطلاع على التراث هما ينطوي عليه من حقائق معرفية يعين القارئ على تأسيس رؤية نقدية، وتهيئة أرضية خصبة لتفعيل الجو الثقافي الجزائري من جديد.
- ✓ لا بد من الاعتراف بأن الوجود الحضاري الفعال لأي أمة يقاس - في الدرجة الأولى – بما لديها من أعلام، وكذلك بما أبدعوه من روائع فكرية.
- ✓ يمثل مؤلف"المقري التلمساني" (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) جملة من الشفرات اللغوية الدلالية، بداية من العنوان، حيث اتضح لنا بأنه اعتمد فيه على

رؤية إسلامية، ومن هنا نجده قد اختار الدوال التي آثر أن تكون عنوانا لمؤلفه وفق تلك الرؤية، محاولا في الوقت ذاته إنتاج الدلالة في صورة بلاغية فنية متصلة بالأثر النصي المتناول.

- ✓ كتاب(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) يقوم على بناء وظائفي نصي يحقق مقاما معرفيا إخباريا وخطابيا، يدمجه في أنموذج نصي وظيفي يقتضي من صاحبه فصاحة عفوية ولغوية وبلاغية.
- ✓ "المقري التلمساني" في مؤلفه المذكور آنفا كان مسلما بأن المعنى الذهني يأخذ موضع النص المتكون من علامات لغوية، ومنظومة بلاغية، كونهما تؤديان دورا هاما في تأليف البنية الدلالية والجمالية اللتان تدعوان إلى ضرورة إخراج ذاك النص من بوتقته البلاغية المعيارية المكونة لشبكة لغوية ذات بناء متميز، مرورا بالبلاغة التاريخية والوصفية ككل لتصل به – القارئ – في نهاية المطاف إلى بلاغة تأويلية يكون شغلها الشاغل استكشاف مستويات الدلالة انطلاقا من البنية السطحية وصولا إلى البنية العميقة .

بيبليوغرافيا:

1 - أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، مج1 (بيروت: دار صادر، 1988) .

2 - حسن بن حسن، **النظرية التأويلية عند ريكور**، (مراكش المغرب : دار تينمل للطباعة و النشر، 1992م.

3 - حسين مؤنس، **المقري أغرب سفير الأندلس صفحات مشرقة**، (الكويت: وزارة الإعلام، برج الإثماء، 15 أكتوبر 2004م).

4 - شكري مبخوت، **جمالية الألفة النص متقبلة في التراث النقدي**، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت تونس، 1993).

5 - كميل اسكندر حشيمة وآخرون، **المنجد في اللغة والأعلام**، ط 36 (بيروت: دار المشرق، 1997).

6 - ميجان الويلي، سعد البازغي، **دليل الناقد الأدبي**، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 1992).

7 - ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**،(بيروت، دار الغرب د ت).

8 - هنريش بليث، **البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص**، ترجمة محمد العمري، المغرب: إفريقيا الشرق 1999.

9 - عاشور المنصف، " مشروع نظيري في وصف الدال بين القراءة و الكتابة إجراء شكل الشكل" **مجلة فصول** في عددها الخاص بقضايا الأسلوبية، مج 5، ع 1، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1984).

10 - عبد المجيد زراقط،" البلاغة العربية في أسس نشأتها، نظرية في الكشف والإيصال"، **مجلة الفكر العربي**، ع 46 (بيروت: الصادرة عن معهد الإنماء العربي للعلوم العربية، السنة 8، يونيو 1987).